اهدنا الصراط المستقيم

إن الله سبحانه وتعالى قد أنزل مائة وأربعة كتب سماوية على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقد جمع هذه الكتب كلها في ثلاثة هي: التوراة والزبور والإنجيل ثم جمع هذه الكتب الثلاثة في واحد جعله للبشر كافة وأنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أرسله إلى البشر كافة، هذا الكتاب هو القرآن الكريم، ثم جمع القرآن كله في سورة واحدة هي سورة الفاتحة.

وفي الفصول السابقة تكلمنا عن أهم مقومات الدين الحنيف من خلال سورة الفاتحة فوجدنا فيها كل مقاصد القرآن الكريم، فقد ضمت الاستعاذة بالله والاستفتاح باسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله والثناء عليه، ووجوب عبادته وطلب الهداية منه تعالى، وقصص الذين من قبلنا ممن أنعم الله عليهم والضالين والمغضوب عليهم.

وقد أرشدنا سبحانه وتعالى إلى الطريق الذي يجب أن نسلكه لننال به رضوانه ورحمته وغفرانه وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، هذا الطريق الذي نطلب من الله أن

يهدينا إليه هو «الصراط المستقيم»؛ ولذلك اعتبر علماء التفسير أن الفاتحة هي القرآن وأن السور الأخرى إنما جاءت شرحاً وتفسيراً وتفصيلاً لما جاء في سورة الفاتحة.

معاني طلب الهداية:

إن طلب الهداية الذي نرجوه من الله في سورة الفاتحة يحمل كل المعاني التي يمكن أن يتخيلها المسلم، وهي منقسمة إلى ثلاثة أبعاد:

1 - العلاقة بينك وبين نفسك.

2 - العلاقة بينك وبين الناس.

3 - العلاقة بينك وبين الله.

هذه الأبعاد تملأ نفسك بمعاني التوحيد والرحمة والحب والمعاملة الطيبة والخلق القويم.

وفي قولك في هذه السورة كل طلب بصيغة الجمع: **«نعبد»** و**«نستعين»** و**«اهدنا»** تجد الصيغة الجمعية التعاونية فأنت تطلب الهداية لنفسك وللآخرين، وتعرف قيمتك بين يدي الله تعالى وأنك لا تملك في الحقيقة شيئاً فالمالك الحقيقي هو الله وحده، فهو مالك الدنيا والآخرة و﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ الذي سيحاسب فيه كل ظالم على ظلمه، فإن تطاول عليك أحد أو ظلمك حقك، ولم تقدر على محاسبته في هذه الدنيا فهناك

يوم سيحكم فيه الله بين العباد، يوم يحكم فيه الديَّان الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة من خير أو شر، ولن يقدر هذا الظالم على التملص من أداء حقك كما تملَّص في الحياة الدنيا.

وفي قولنا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ نعلم أن الهداية تحتاج إلى طلب وسعي وعمل فهي لن تأتيك وأنت مستلقٍ على أريكتك أو ساعٍ إلى معصية؛ بل لا بد أن تندم على معصيتك وتنوي التوبة صادقاً وتعود إلى درب الطاعة.

أما من أعلن التوبة ولم يترك المعصية فهو كالمستهزىء بربه يظن أنه يخادع الله وما يخدع إلا نفسه.

التوبة النصوح:

إن التوبة النصوح لا تستكمل إلا بشروط عدة هي:

1 - أن يندم على خطيئته.

2 - أن يتخلص من هذه الخطيئة وكل ما يؤدي إليها.

3 - أن يعقد العزم الصادق على عدم معاودتها.

4 - أن يكون الوقوع في النار أهون عليه من معاودة تلك المعصية.

أما أن يطلب الهداية من الله، وهو داخل إلى خمَّارة أو نادٍ للقمار، أو ذاهب لممارسة الزنا ويعتذر عن ذلك بأن الله سمح له بالتوبة فهذا ما لا يكون.

إذا أخطأت بحق شخص من الناس، ذي مكانة أو شأن في الدولة مثلاً، فأنت لا بد أن تتوقع منه العقاب، ولكن وبينما أنت في خوف وترقب وتوقع وانتظار لعودة رسولك الذي أرسلته إليه يرجوه أن يستقبلك لتقدم اعتذارك عما فعلته، يعود الرسول ويعلمك أنه لم يستقبله ولم يقبل سماع أي كلمة منه، أو رفض أن يقبل اعتذارك إليه، فماذا تتوقع حينها؟

إنك بالطبع ستقعد خائفاً منتظراً أن ينالك عقابه في أي لحظة، إذن لكي يُقبل اعتذارك يجب أن يسمح لك أولاً أن تقدم هذا الاعتذار وأن يكون مستعداً لسماع هذا الاعتذار.

كل هذا ومن أخطأت بحقه إنسان مثلك مهما بلغ من مكانة، فكيف إن كان من عصيته وأخطأت هو مالك الدنيا والآخرة، خالق السموات والأرض الذي لا حد لسلطانه؟

ورغم كل ذلك، فهو قبل أن ترسل من يعلمه باستعدادك للاعتذار عن ذنبك قد فتح لك باب الاعتذار، أليس هذا في حد ذاته عطاء ورحمة وكرم لا مثيل له.

لقد يسر لك أول خطوة من خطوات النجاة من الألم والخوف والترقب وتوقع العقاب.

ولو أنك عندما أخطأت بحق ذلك الإنسان المسؤول، وطلبك أن تذهب إليه لتعتذر، وقبوله لطلبك، بدل أن تذهب إليه وتعتذر، قلت في نفسك: ولماذا أذهب إليه للاعتذار، فلم

تذهب ولم تعتذر، ألا يكون هذا إساءة للأدب؟ أو أنك اعتذرت فعلاً إليه ثم أخطأت بحقه نفس الخطأ مرة ثانية ألا يعتبر ذلك إصراراً منك على الإساءة إليه فيصرّ هو على عقابك؟ ثم لو افترضنا أنه قبل اعتذارك للمرة الثانية وأنت بدل أن تقلع عن إساءتك بعد الاعتذار عدت إليها من جديد ألا تكون مستحقاً للعقاب ولا عذر لك؟

لكن الله سبحانه وتعالى قد فتح لك باب التوبة ولو تكررت أخطاؤك ما دمت لا تصر على الذنب؛ لكن عليك أن تعزم على التوبة أولاً.

الثلاثة الذين خُلّفوا:

عندما تخلف ثلاثة من الصحابة عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك دون عذر، أخّرهم الرسول ﷺ، فلم يكلمهم بعد ذلك وقاطعهم الناس فلم يخاطبهم أحد إلى أن نزلت الآيات التي غفر الله لهم فيها وفتح باب التوبة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: 118].

﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فتح لهم باب التوبة، ليعودوا إلى الله ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي ليعتذروا ويرجعوا إلى ما أمر به الله عز وجل، ففتح باب التوبة رحمة من الله لعباده، وعندما يفتح الله باب التوبة لعبده فعلى العبد أن يتوب ليقبل الله توبته، أما أن يصر على المعصية ثم يقول: «اطلبوا من الله أن يهديني ويتوب علي» فهذا

يعني أنه قد قصَّر في حق الله وفي حق نفسه لأنه يوردها المهالك ويقودها إلى عذاب مقيم في جهنم وبئس المصير.

بين الإنسان والشيطان:

إن أول من أصر على معصيته وأساء الأدب كان إبليس، عندما قال ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: 16].

لقد أغواه حقده على آدم عليه السلام وتكريم الله له ودفعه إلى السعي لإغوائه لكنه بدل أن يعترف بذنبه نسب الغواية لله تعالى والعياذ بالله فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ ولم يكتف بذلك، فعندما أنظره الله أصر على عصيانه وعلى إغوائه لآدم وتوعد ذريته بالإغواء.

وبعض الناس يفعلون فعل إبليس، فعل الشيطان، فتراهم مقيمون على المعاصي والذنوب والآثام فإذا عاتبتهم وطلبت إليهم أن يتوبوا قالوا: «إن الله كتب علينا هذا، والإنسان مسيَّر لا مخير».

إنهم يذهبون إلى أماكن المعصية باختيارهم، يطلبون الخمور راغبين ويلعبون القمار طامعين، ويأتون الزنا متشوقين ثم يعلقون معاصيهم على شمَّاعة القدر والمكتوب.

لو أن الله كتب عليك ذلك لما نهاك عنه، ولو قدَّره عليك ما حاسبك عليه! لكن الله كتب أعمالك لأنه يعرف بسابق علمه ما ستفعل.

الجبر والاختيار:

إن وجود الجنة والنار، والثواب والعقاب، أكبر دليل على أن الإنسان مخيَّر لا مسير؛ والإجابة على هذا السؤال ليست بالبساطة التي يعتقدها البعض.

هل نقدر على التفريق بين الأمور التي يكون فيها الإنسان مخيّراً والأمور التي هو فيها مسير؟ بالطبع يمكن ذلك.

إن كل أمر سيحاسبنا الله عليه هو أمر نحن فيه مخيَّرون.

يمكنك أن تأكل أو أن لا تأكل، أن تأكل ما أحل الله فقط أو أن تأكل ما حرَّم الله عليك أكله، فإن أكلت ما حرَّم الله عليك أكله كنت مسؤولاً عن فعلك هذا وستحاسب عليه.

يمكنك أن تشرب ما تريد، فتشرب ما أحل الله لك من الشراب الطيب وهو كثير لا يحصى، كما يمكنك أن تشرب الخمر المحرَّمة، وهذا ستسأل عنه لأنك خالفت فيه أمر الله وعصيت.

إن عصير العنب أو التفاح في حد ذاته شراب طيب حلال، لكنك قادر على تخميره وتحويله إلى خمر مسكرة محرَّمة تضيِّع بها عقلك فترتكب الموبقات وأنت لا تدري من أمر نفسك شيئاً، وبالتالي فأنت مسؤول عن كل ذلك.

يمكنك أن تقتل نفساً بغير حق حتى لو كانت هذه النفس

نفسك لكنك مسؤول عن إزهاقك هذه النفس لأنك اخترت هذا العمل بنفسك وبملء إرادتك.

يمكنك أن تصلي وتصوم وتزكي أموالك وتحج كما أمرك الله، كما يمكنك أن تترك الصلاة والصوم وتمتنع عن أداء الزكاة والقيام بالحج مع أن لديك الإمكانية على ذلك، ستحاسب على ذلك فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعليها؛ والله سبحانه وتعالى لن يسألك لماذا ولدت رجلاً ولم تولد امرأة أو العكس، ولماذا ولدت رجلاً قوياً قادراً على الجهاد وتغيير المنكر بيدك أو بلسانك أو ولدت رجلاً ضعيفاً لا يقدر على شيء من ذلك، ولا يقدر على استنكار المنكر إلا بقلبه. لن يسألك الله تعالى لماذا تطلع الشمس من المشرق ولا تطلع من المغرب، ولن يسألك لماذا متَّ وأنت طفل صغير ولم تنتظر أن تكبر كي تؤدي ما أوجب الله عليك عندما تكبر، فهذا الأمر بيد الله وليس بيدك.

إذن فالأمر بسيط، ما أنت مخيَّر فيه تحاسب عليه لأن الفعل أو الترك بيدك، أما ما كان بيد الله وقضائه وقدره فلن تحاسب عليه ويمكن لكل إنسان أن يعتمد هذه القاعدة لمحاسبة نفسه ومراقبتها كي لا تزل وتسقط فيـــتحق العقاب.

خمس لا يعلمهن إلا الله:

رأى الإمام مالك رحمه الله في منامه رجلاً يدخل عليه، فسأله من يكون؟

أجاب الرجل بأنه ملك الموت؟ فسأله الإمام مالك: كم بقي لي من الحياة؟ أشار ملك الموت بكفه كاملاً.

استيقظ الإمام مالك من نومه وهو يتصبب عرقاً، وأسرع في الصباح إلى ابن سيرين وكان معروفاً بتفسير الأحلام.

يظن البعض أن تفسير الأحلام من الخرافات والأكاذيب، وهذا غير صحيح فقد أعلمنا الله في كتابه أنه قد وهب هذه القدرة لبعض الناس وممن ذكرهم القرآن الكريم ووصف معرفتهم بذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام، ويعقوب ويوسف عليهما السلام. ونعود إلى الإمام مالك فقد دخل على ابن سيرين رحمه الله مذعوراً، يرتعد وقال له:

- أدركني يا ابن سيرين.

قال ابن سيرين: ما بك يا إمام.

قال الإمام مالك: لقد رأيت ملك الموت في منامي، فسألته كم بقي لي من الحياة، فأشار بكف يده خمساً؛ وأنا لا أدري هل بقي خمسة أيام أو خمسة أسابيع أو أشهر أو سنين. ضحك ابن سيرين، وقال: إنه لم يقل لك خمسة أيام أو أسابيع أو غيرها، ولكنك سألته عن أمر لا يعلمه هو فأشار إليك بأن هذا الأمر واحد من خمس لا يعلمهن إلا الله وحده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا

تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: 34]، صدق الله العظيم.

ضيف سليمان عليه السلام:

كان سليمان عليه السلام إذا جلس على عرشه اجتمع حوله قادة جنده من الإنس والجن والطير والوحش كما قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: 17]؛ فدخل عليه في مجلسه هذا ملك الموت عليه السلام ذات يوم، فوجد رجلاً يجلس إلى جانبه فنظر إليه مستغرباً.

ارتعد الرجل، وسأل سليمان عليه السلام عن زائره فأعلمه أنه ملك الموت.

ازداد خوف الرجل وقال: إنه يحدق في وجهي وينظر إلي نظرات أخاف منها، وأخشى أنه يريد قبض روحي.

قال سليمان عليه السلام: وماذا تريدني أن أفعل لأجلك كي تستريح وتقر نفسك؟

قال: أبعدني من هنا، وأرسلني إلى أي مكان آخر.

دعا سليمان عليه السلام أحد مردة الجن وأمره بحمل الرجل إلى الهند فوراً.

بعد أيام عاد ملك الموت عليه السلام لزيارة سليمان عليه السلام،

فسأله: عندما زرتني قبل أيام نظرت إلى الرجل الذي كان بجواري نظرة دهشة واستغراب أخافته، فما الذي أدهشك فيه؟

قال ملك الموت عليه السلام: لقد استغربت وجوده بجانبك وقد أمرني الله تعالى بقبض روحه بعد ساعة في الهند! انظروا لقد اختار الرجل بنفسه أن يذهب إلى الهند في أقل من ساعة وعلى ظهر مارد من الجن كي يكون في المكان الذي قدَّر الله تعالى أن يكون موته فيه ولو كان يعرف أن موته سيكون في الهند لحاول ألا يذهب إليها أبداً، لكن ملك الموت نفسه لا يعرف قبل أن يأمره الله بذلك؛ وعلم الله لا يخطىء أبداً ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾ [طه: 52] فتأدب يا ابن آدم ولا تدَّع معرفة ما لا سبيل لمعرفته ولا ترم بأخطائك وذنوبك على قضاء الله وقدره.

إن علاقة الإنسان بربه يجب أن تكون علاقة ملؤها الأدب والاحترام، ولذلك قال نوح عليه السلام فيما ذكره الله في كتابه العزيز، منتقداً تصرفات قومه ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: 13].

الاعتراف بالخطأ:

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: 13].

إن طائر الإنسان هو عمله الذي قام به في الحياة الدنيا،

فليس له حجة يحتج بها، وادعاءه بأن الله أمره بذلك مردود عليه وهو الشاهد على نفسه بأعماله ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾ قد أحصى فيه الملائكة الكاتبون أعماله كلها، صغيرها وكبيرها ﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ أمامه لا يمكنه تكذيبه أو إنكار ما فيه، فإن أنكر، قيل له ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ فيحاول التملص فيقال له: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14] فتشهد عليه جوارحه التي مارس المعاصي بواسطتها، ولذلك قال تعالى في سورة القيامة ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة: 14 – 15] فلا تنفع المعاذير لأن الرسول جاء بشيراً ونذيراً للعالمين وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، فالحلال بيِّن والحرام بَيِّنٌ والإنسان وحده من يختار العصيان؛ وبكامل إرادته ورضاه.

الوقوف بين يدي الله تعالى:

يقف العبد العاصي بين يدي الله تعالى، فيقال له: ألم تفعل كذا، يوم كذا، ساعة كذا؟ وذلك لكل ذنب اقترفه، فلا يقدر على الإنكار، لكنه يحاول التملص وإلقاء اللوم على غيره: فلان هو الذي أضلني، فلان هو الذي شجعني، فلان أقنعني. فيقال له: ألم تأتك نذر الأولين، ألم تر ما حلَّ بالعاصين؟ ثم يأتي الأمر الإلهي لملائكة العذاب ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: 30 – 32]؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«من نوقش الحساب هلك»**.

إنكار الخطأ:

لو أن كل واحد منا اعترف بما يرتكب من أخطاء لاستقامت الحياة على الأرض، ولكن عندما يلقي السائق بخطئه على السائق الآخر، ومخالفته لإشارة المرور على الشرطي، وعندما يلقي الطالب بخطئه على المعلمة التي لم تشرح الدرس جيداً؛ والمعلمة تلقي بالتبعة على عدم استيعاب الطالب بسرعة، والزوج يتهم زوجته بأنها هي سبب تقصيره في أداء واجباته الأسرية بتصرفاتها التي تجعله لا يطيق البقاء في المنزل، وهي تلقي بأخطائها عليه وتتهمه بإهمالها والتقصير بحقها وحق أطفالها، وهكذا دواليك كل واحد يلقي بتبعة أخطائه على الآخرين، ولذلك نرى المشاكل تعم العالم والحروب في كل مكان؛ والجرائم تزداد والفساد ينتشر. لو أن كل واحد اعترف بذنبه وخطئه واعتذر عمَّا فعل، ورجع عن أعماله لكانت الحال غير الحال ولكانت الدنيا بألف خير؛ لكنهم يخطئون ويذنبون ثم يحلفون بالله أنهم ما فعلوا، ويوم القيامة ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: 18 - 19].

يقف الإنسان بين يدي الله فتُذكر له ذنوبه ذنباً ذنباً فينكر، ويحلف بالله كذباً ويقول: وعزتك وجلالك يا رب ما زنيت، فينطق فرجه ويقول: بل زنيت بي مع ومع ومع...

يقول: لا يا رب ما سرقت، فتنطق يده وتقول: بل مددتني إلى مال غيرك وسرقته.

يقول: لا يا رب ما جرحت ولا قتلت، فتقول يده: بل أمسكت بي سلاحاً وضربت فلاناً وقتلت فلاناً.

يقول: لا يا رب ما ذهبت إلى خمارة ولا مكان ترتكب فيه المعاصي فتقول رجلاه: بل سعيت بي إلى الخمارات والملاهي ومنازل البغايا والمعاصي.

يقول لجوارحه: عنكِ كنت أدافع كي لا تحرقي بنار جهنم، فترد عليه جوارحه قائلة: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء؛ ثم يساق إلى النار.

أما من تاب عن ذنوبه في الحياة الدنيا، فيقرره الله عن ذنوبه فيقر بها، ويقول: ما رآني سواك يا رب.

فيسأله الله عز وجل: وماذا عملت معك في الدنيا؟

يقول العبد: سترتني يا رب.

فيقول الله عز وجل: كما سترتك في الدنيا، لا يستر ذنوبك اليوم غيري، قد غفرت لك، خذوه إلى الجنة.

الخشية من الله:

روى البخاري وابن ماجه والإمام أحمد وغيرهم من طرق عدة وبأسانيد مختلفة عن رسول الله ﷺ خبر رجل ممن كان

قبلنا؛ أعطاه الله تبارك وتعالى مالاً وولداً لكنه لم يكن يدين بدين قط حتى ذهب عمره وأحس بدنو أجله فأدرك حينها عظيم ذنبه وتقصيره، وخشي أن يعذبه الله على ما فعل لأنه لم يفعل في حياته خيراً قط ولم يحسن إلاَّ لأولاده.

جمع الرجل أولاده وقال: ألم أحسن إليكم يا أولادي.

قالوا: بلى يا أبتاه.

قال: ألم أعطكم الأموال والضياع؟

قالوا: بلى يا أبتاه.

قال: سأوصيكم بوصية، لئن لم تقسموا لي بأنكم ستنفذونها بحذافيرها لآخذن كل ما أعطيتكم ولا أسامح أحداً منكم أبداً. فتعهدوا له بتنفيذ وصيته.

قال: إذا مت فأحرقوني، أي يجعلونه فوق الحطب كما يفعلون في بعض البلاد إلى يومنا هذا؛ ثم خذوا هذا الرماد في يوم عاصف فذروه في الهواء، فوق البحر وفي البراري، «فوالله لئن قدر عليَّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً». بعد أيام، مات الرجل، فأعد أولاده المحرقة، وفعلوا كما أمرهم، فأحرقوا جثته ونثروا رماده فوق البحر وفي البراري والهواء فحملته الريح إلى كل مكان.

لكن الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء، أمر الريح

فجاءت بما حملت، والبحر فجاء بما حمل والأرض فألقت ما تناثر عليها، فإذا الرجل قائم بين يدي الله عز وجل؟ فقال له: ما حملك يا عبدي على ما فعلت؟

قال الرجل: لقد عشت غارقاً في ذنوبي، وعندما تذكَّرت حياتي خشيت لقاءك يا رب واستحييت من الوقوف بين يديك. نظر الله سبحانه وتعالى لملائكته وقال: عبدي خشيني واستحى مني، فإني أستحي أن أدخله النار، خذوه إلى الجنة.

وهذا يذكرنا بقول القائل:

إلـهـي لا تـعـذبـنـي فـإنـي
مُـقِـرٌّ بـالـذي قـد كـان مـنـي
فـمـا لـي حـيـلة إلا رجـائـي
لعفوك إن عفوت وحسن ظني
فـكـم مـن زلـة لـي فـي الـخـطـايـا
وأنـت عـليَّ ذو فـضـل ومَـنِّ
إذا فـكَّـرت فـي نـدمـي عـلـيـهـا
عضضت أناملي وقرعت سنِّي
يـظـن الـنـاس بـي خـيـراً وإنـي
لشرُّ الناس إن لم تعفُ عني

إن العبد ليرتكب الذنب في السر، لا يراه إلا الله وحده، لكنه يقعد خائفاً أن يطلع الناس على ما فعل فيفضحوه، ويستحي

من الله، فيستغفر، ولو كان عاصياً لا يفعل خيراً أبداً؛ فإن تاب فيما بعد ستره الله في الآخرة كما ستره في الدنيا، لكن هناك أشخاصاً يرتكبون المعاصي، ثم يأتون مجالس أصحابهم وأحبائهم فيتفاخرون بما فعلوا فيقول أحدهم:

لقد سهرت البارحة مع فلانة وعلانة، وفعلنا، وعملنا ويسرد أخبار وتفاصيل ما فعل، أو يقول: ذهبت إلى النادي الفلاني، وهو ناد للقمار، فلعبت مع فلان وغيره وربحت وسنذهب الليلة لنسهر وننفق بعض هذه الأرباح مع فلانة في مكان كذا.

أو يتفاخر بأنه شرب كذا وكذا زجاجة خمر، ولم يسكر، أو يروي الأخبار المضحكة عمَّا فعله هو أو غيره من السكارى. هذا العبد يرتكب المعاصي ثم يتفاخر بها أيضاً ويستعلن بذلك أمام الناس، وكأنه قام بأحسن الأعمال. ولذلك قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرون» قيل: ومن هم المجاهرون يا رسول الله؟، قال: «يذنب العبد الذنب فيستره الله فيفضح به نفسه».

وهذا أفظع وأشد أنواع الفحش، إنه يتفاخر بارتكاب المعاصي والتطاول على الأعراض كما لو أنه قام بعمل يشكر عليه ويحمده الناس.

لقد علمنا رسول الله ﷺ: أنه «إذا رأى أحدكم أخاه على منكر فإن استطاع أن يستره بطرف ثوبه فليفعل».

وقال: «من ستر مؤمناً مسلماً ستره الله، ومن سمَّع سمَّع الله به» و«من ذب (أي دافع وستر) عن عرض مسلم ذبَّ الله عنه».

وهذا قد ستره الله، ففضح هو نفسه وجاهر بارتكابه ما نهى الله عنه؛ فالله سبحانه وتعالى سيفضحه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ويعذبه عذاباً لم يعذِّبه أحداً من العالمين.

المجاهرون:

إن من الأمم التي جاهرت بالمعاصي في الأزمنة الغابرة، قوم لوط عليه السلام فإنهم كانوا يأتون المنكر في ناديهم، وعلى مرأى ومسمع من بعضهم البعض، ولا يتناهون عن منكر فعلوه بل يشجع بعضهم بعضاً على المبالغة والمتابعة واختراع أنواع جديدة من أنواع الفسوق والفواحش؛ ولذلك كان هلاكهم عبرة لغيرهم، وبلادهم وأرضهم أمامنا عبرة فقد صارت بحراً ميتاً لا حياة فيه حتى لحشرة واحدة أو نبتة صغيرة؛ كما جاهر غيرهم بأنواع أخرى من المعاصي كقوم عاد وثمود وقوم شعيب وغيرهم فرأينا عاقبتهم من الآثار التي تركوها في الأرض، نمرُّ عليها، ويزورها السُّواح، ويرون الأبنية العظيمة والجبال المنحوتة وغير ذلك؛ لكن كل هذا لم يدفع عنهم العذاب؛ ومع ذلك يتطلع الناس إلى ذلك ولا يتعظون.

النساء يجاهرن بالمعاصي بل ويكشفن عوراتهن، وليس في الأماكن المغلقة، بل في الشوارع وعلى الشواطىء أمام أعين المئات والألوف من الناس، بل إن بعضهن يزيد على ذلك؛ بل إنهن يعرضن أجسادهن العارية أمام عدسات المصورين لتنشر على صفحات المجلات فيراها مئات الألوف، وأمام آلات التصوير فتعرض في دور السينما والتلفاز باسم الفن والتمثيل فيراها ملايين المشاهدين ثم يجرون المقابلات معها فتتفاخر بالأدوار التي أدتها. إنه أمر لا يمكن لأي فطرة سليمة أن تتقبله.

هي متزوجة من رجل، ومع ذلك، وأمام عشرات الأشخاص من العاملين والمصورين تنام في فراش واحد أو تتعانق عارية أو شبه عارية مع غيره ثم يعرض ذلك أمام ملايين الناس، ويقولون ويقلن: هذا فن.

إنه فن المجاهرة بالمعاصي والفواحش، والعياذ بالله. هو يمثل معها ثم يعود إلى داره زاعماً أنه زوج مخلص وهي تعود إلى دارها وتزعم أنها تحب زوجها، وهذا الزوج يجلس بجانبها يتفرج على ما فعلت لا يتحرك فيه عرق أو ينبض عصب من كرامة أو شرف أو حياء من الله عز وجل. قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ بالتوبة والإخلاص لله عز وجل: ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾ واستعلنوا بالمعاصي ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ بأنها قد استحقت

العذاب ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16]. وقد قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»**.

والناظر في أحوال العباد والبلاد هذه الأيام يرى نتائج ما يفعلون.

الاستدراج:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف 182 - 183] ولذلك نرى أنه من قوانين الذنوب أن الذنب يستدرج صاحبه إلى حتفه.

انظر إلى شارب الخمر، يبدأ بكأس، يتلوه كأس، ثم لا يكتفي بزجاجة، ثم لا يكتفي بنوع، حتى يصير مدمناً لا يقدر على مفارقة الخمر ويصاب بالتسمم الكحولي، فيبيع نفسه وأهله من أجل كأس خمر، ثم يجر زوجته معه إلى مجالس الخمر والضياع والعياذ بالله. وانظر إلى المقامر، يبدأ مدَّعياً التسلية، ثم بالقليل وكلما ازدادت خسارته ازداد إقباله حتى يبيع عرضه ليلعب أو يقتل نفسه أو غيره ويسرق ليلعب القمار كي يعوض ما خسره. وانظر إلى مدمن المخدرات، يبدأ بسيجارة كَيْفٍ، ثم يصل بعد ذلك للمخدرات الخطرة التي تودي بحياته، وقد يسرق أهله، وقد يقتل ليحصل على المال ليشتري المخدر، عافانا الله وإياكم.

وهذا كله استدراج المعاصي لصاحبها؛ فهو في بداية سعيه

للحرام يحس حلاوة تشجعه على المتابعة، لكنها حلاوة مزيفة يخادع بها الشيطان العاصين ليتبعوه فإذا غرقوا في المعاصي أحسوا بالمرارة ولكن الخلاص يصير أصعب.

أما المؤمن فإنه يحس حلاوة الإيمان، وهي حلاوة حقيقية فكلما ازداد إيمانه واستكثر من العبادات ازدادت هذه الحلاوة طيباً.

وأنتم يا أعزائي القراء بِالخِيار، هل تؤثرون حلاوة تدوم وعاقبتها خير، أم حلاوة تتحول إلى مرارة عاقبتها إلى عذاب مقيم؟.

قال تعالى يصف هؤلاء المقبلين على الدنيا وبهرجتها ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: 16 - 17].

ولو كان متاع الدنيا من ذهب، ومتاع الآخرة من فخار لوجب أن نبيع الذهب لنشتري الفخار، فإن فخاراً باقياً خير من ذهب ذاهب. هذا ما علمنا إياه من سبقنا ممن وجد حلاوة الطاعة فهل تتركون أنفسكم تزين لكم الدنيا وشيطانها الشهوات الزائلة والغنى الكاذب أم ترغبون بما هو باق؟

لذة ساعة وحزن طويل:

تعمل طوال الشهر لتنال راتبك في آخره، ثلاثون يوماً من العمل والسعي والتعب، والذهاب والرواح من أجل أن تستحق هذا الراتب وتقبضه، فما رأيك لو جاء لص، وسرق هذا الراتب من جيبك؟

ستحزن وتغضب وتثور لذلك، ولكنك عاجز عن فعل شيء. ويأخذ السارق المبلغ، ويظن أنه قد كسب، وإنما هو الخاسر فقد خسر آخرته أما أنت فقد خسرت شيئاً يعوضه الله عليك. فأي الشخصين تريد أن تكون: من خسر قليلاً من المال وربح آخرته أم من ربح قليلاً وخسر آخرته؟

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: 81]، يظن هذا أنه قد كسب وهو الخاسر حقاً. وهذا الزاني يظن أنه قد ربح لذة ساعة لكنه خسر الدنيا والآخرة، فهذه اللذة التي كسبها قد تكون سبب مرض لا علاج له، يعيش بعدها في عذاب رهيب حتى يدركه الموت، أو خوف من انكشاف أمره وافتضاحه، أو... أو... فالمخاوف كثيرة والبلاء عظيم، وبعد ذلك عذاب لا انقضاء له يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ينزل الإنسان إلى السوق وجيبه عامر بالمال، ويتجول في أنحائه فيرى تلفازاً من نوع جديد، أحدث مما لديه فيشتريه، أنت تملك واحداً يا هذا فما حاجتك بهذا الذي تدفع مالك ثمناً له، والجواب: هذا أحدث، هذا أكبر، هذا أجمل صورة إلخ...

ينزل إلى السوق في رمضان فيرى المآكل والمشارب فيسيل لعابه، فيشتري ويحمل ويشتري ويحمل، حتى يستهلك ما في جيبه ولا تنتهي رغباته ولا تنقضي شهوته ولكن ما إن يجلس إلى طاولة الطعام ويتناول لقيمات حتى يحس بالشبع والامتلاء.

كان يظن أنه سيأكل من كل هذه الأصناف التي ملأ بها الطاولة وسيشرب كل أنواع العصير الذي أحضره لكن جرعات يسيرة كانت كافية، لكنها النفس التي تزين للإنسان ما يرى، فإن ترك لها الحبل على الغارب أصيب بالتخمة وأوجاع المعدة، وهذا فيما أحلَّه الله له، فكيف بما حرَّمه الله؟

كم حسنت لذة للمرء قاتلة
من حيث لا يدري أن السُّم في الدَّسَم
فالنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على
حب الرَّضاع وإن تفطمه ينفطمِ
وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضاك النصح فَاتَّهِمِ

محاسبة النفس:

إن أردت الفوز بالخير في الدارين فعليك أن تربي نفسك وتحاسبها ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14]، فقبل الوصول إلى يوم تحاسبك فيه هذه النفس وتوردك موارد التهلكة حاسبها أنت في هذه الدنيا، وراقبها كما تراقب حسابك المصرفي، أو مصاريفك كي لا تتجاوز الحد فتقع في المحظور. إذا أردت أن تحصي ما قبضت وما دفعت لتكون على بينة من أوضاعك المالية تحضر ورقة وتسجل عليها كل ذلك وبشكل

يومي؛ وخلاصك من النار وفوزك بالجنة أهم من هذه القروش التي تحصيها مهما كثرت.

المحاسب يعد دفتراً يسميه «دفتر اليومية»، فاعتبر نفسك موظفاً عند نفسك وأحضر ورقة لا يطَّلع عليها أحد سواك وضع عشر أسئلة، وأمام كل سؤال مربعات، في الأول: نعم، وفي الثاني: لا، وفي الثالث اكتب الدرجة التي تظن أن أداءك يستحقها.

هذه الأسئلة هي:

1 - هل قرأتَ اليوم شيئاً من القرآن الكريم؟

2 - هل قرأتَ حديثاً للنبي ﷺ؟

3 - هل امتنعتَ عن منكر؟

4 - هل أمرتَ بمعروف؟

5 - هل عُدْتَ مريضاً؟

6 - هل سرتَ في جنازة؟

7 - هل تصدقتَ بصدقة؟

8 - هل دعوتَ لوالديك أو وصلت أقاربك؟

9 - هل خشعتَ لله؟

10 - هل عملَت عملاً تدَّخره لنفسك يوم القيامة؟

وزِنْ أعمالك وضع لكل عمل درجة، قال سيدنا عمر ﷺ: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم من قبل أن توزن عليكم**».

وتوكل على الله وادعه قائلاً ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: 87 - 89]. وضع نصب عينيك كل يوم ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ۝٢٩﴾ [الفرقان: 27 - 29] صدق الله العظيم.

اللهم أحسن وقوفنا بين يديك ولا تخزنا يوم العرض عليك، واسترنا في الدنيا والآخرة ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، إنك نعم المولى ونعم النصير؛ وصلِّ اللهم على محمد وآله وصحبه وسلِّم.